(مقرظ لا مقرطق)

نشرت الرسالة الغراء فى عددها الصادر فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٣ كلمة تحت عنوان « قص الشعر فى الادب العربى » بقلم الاستاذ على شرف الدين جاء فيها (. . . فقد كانوا يضعون الأقراط فى أذان سقاتهم من الغلمان ويطلقون على كل منهم (غلام مقرطق) الخ

فالاستاذ يريد بهذا ان يقول : ان الغلام الذى يوضع القرط فى اذنه يسمى مقرطقاً وهو خطأ منشؤه عدم التفرقة بين القرط والقرطق ، وبين المتحلى بالقرط ولابس القرطق. فالمتحلى بالقرط يسمى مقرطاً ولابس القرطق مقرطقاً ، والقرطق ملبوس من ملابس العجم يشبه القباء . قال الفيروزابادى فى القاموس : القرطق كجندب لبس معروف معرب كرته ، وقرطقته فتقرطق البسته اياه فلبسه «اه» وفى المصباح القرطق مثال جعفر ملبوس يشبه القباء وهو من ملابس العجم اه

فانت ترى أنهم لم يختلفوا فى معنى القرطق فهم متفقون على انه ملبوس يشبه القباء وأنما الخلاف فى ضبطه فجعله صاحب القاموس كجندب وجعله الفيومى فى المصباح كجعفر . (و قد حرفه المولدون) فى اشعارهم كقول بن المعتز :

ومقرطق يسعى الى الندماء ... بعقيقة فى درة بيضاء

واخطأ عمر الوداعى فظن مقرطق بمعنى ذى قرط فى قوله :

قلت لهم لما بدا ... مقرطق يحكى القمر

هذا ابو لؤلؤة ... منه خذوا ثار عمر

وانما هو مقرط كما فى شرح الفصيح (١) اه ولعل الخطأ تطرق الى الاستاذ من الوداعى صاحب هذين البيتين فظن المقرطق ذا القرط كما ظن هو نفسه وعلمت عدم صحته .؟

برهان الدين الداغستانى

(١) من التعليقات على ادب الكتاب

فَلا أنا أَدَّانِى اجتهادى لِبُغْيَتِى
ولا الدهرُ مِمَّا عِشتُ أبغى مُقَرِّبِى
وما فُزْتُ من خِدْنٍ بخيرٍ منَ الذى
لدَىَّ ومن خُودٍ وَدَارٍ وَمَطْلَبِ
ولم أرَهَا إلاَّ طُيُوفًا تَبَاعَدَتْ
مَدَى العمرِ ما تَدْنُو إلى مُتَرَقِّبِ!

فخرى أبو السعود

رواية الابناء والمحبين

للكاتب الانجليزى د . ه . لورنس

نقد وتحليل

أراد د . ه . لورنس فى روايته أن يصور لنا فتى خيالى النزعة دقيق المشـــاعر فى دور الانتقال الاول من حياة الصبى الى حياة الرجل

وليس الفتى «بول» فى هذه الرواية الا الفتى د . ه . لورنس نفسه ، فابوه عامل خشن من عمال المناجم يعول أسرته بعمل ذراعيه ولا يعرف من لذات الحياة غير المأكل والمشرب ولاسيما الاخير منهما . وأما مسز موريل أمه فامرأة مهذبة من أسرة من الطبقات المتوسطة ، كان ابوها مهندسا وكان رجلا كبير الجثة جميلا بادى العظمة فخوراً بلون بشرته الابيض وزرقة عينيه وفخورا أكثر باستقامته ، وقد شابهت جرترود (أى مسز موريل) أمها فى ضآلة البنية ولكنها ورثت خلقها بما فيه من تكبر وشدة حساسية من أسرة أبيها »

ومع ذلك تزوجت هذه المرأة المهذبة من ذلك العامل الخشن ، فقد قابلت وهى فى الثالثة والعشرين من عمرها فتى من وادى أرواش فى حفلة من حفلات عيد الميلاد ، وكان موريل عند ئذ فى السـابعة والعشرين من عمره ، وكان جميل الجسم معتدل القامة ظاهر النشـاط ذا شعر اسود متموج لامع ولحية سوداء قوية لم تحلق قط ، وتلوح على خديه علائم الصحة ، ويلفت النظر فمه الاحمر الرطب لانه كان يضحك كثيرا ويضحك من أعماق قلبه ، وقد وهب ، تلك الموهبة النادرة أعنى الضحكة القوية الرنانة ، ولاحظته جرترود فسحرت به وكان مليئا بالألوان والحياة ويتنقل صوته بسهولة الى المضحك الغريب ، وكان سريع الخاطر ظريفا مع الجميع ، وكان أبوها يميل الى الفـكاهة النازعة الى السخرية ، ولكن هذا الرجل يختلف عنه ، ففـكاهته ناعمة بعيدة عن التعمق الذهنى وحارة فيها نوع من اللعب

« أما هى فـكانت على الضد من ذلك ذات عقل دائم التساؤل قابل للمعلومات يجد لذة كبيرة فى الاصغاء الى الآخرين وكانت ذكية فى جر الناس الى الـكلام ، تحب الآراء وتعتبر مثقفة

تثقيفا كبيرا ، وتحب بنوع خاص المناقشة فى الدين والفلسفة والسياسة مع رجل مهذب، ولكنها لم تكن تمتع بهذه الفرصة كثيراً، لذلك تحمل الناس على أن يتكلموا معها عن انفسهم وتجد فى ذلك لذة كبرى ، وكانت فى شخصها ضئيلة ورقيقة ذات جبهة عريضة تتساقط عليها عناقيد من الحرير الاسمر المجعد ، وعيناها الزرقاوان مستقيمتان أمينتان باحتشام ، يداها جميلتان كسائر أهلها ، وملابسها دائماً ذات لون قاتم فتلبس رداء من الحرير الازرق الغامق ، وتضع سلسلة فضية ذات شكل خاص ودبوس كبير من الذهب المجدول ، هذا كل ما تتزين به ، وكانت بعيدة عن الاهواء شديدة التمسك بالدين ، مليئة بالصراحة الجميلة .

فتن والتر موريل عند ما التقى ناظراه بناظريها ، فكانت عند هذا موضوع غرابة وسحر إذ كانت سيدة فهى اذا كلمته نطقت فى لفظ جنوبى وفى انجليزية صافية يرتعش لسماعها »

***

ليس موضوع الرواية حب ولتر موريل عامل المناجم وتزوجه من جرترود كوبارد ، وانما موضوعها أجل من ذلك ، ولكننا أردنا أن نسوق شيئاً من وصف الرواية لها كى نتعرف اليهما قبل أن نتعرف الى ابنهما الصبى بول موريل

وليس بول بكر أولادهما ، فوليم موريل كان أكبر الأولاد واليه تحول حب الام حين حل الجفاء بينها وبين زوجها محل الحب الاول ، اذ لم تلبث السيدة موريل وهى المهذبة المثقفة أن اكتشفت حقيقة زوجها ورأت وراء ذلك الجسد الذى سحرها بفتوته روحاً خشنة غير مهذبة ، وأخذ زوجها كز ملائه يقبل على الكاس فلا يذهب الى البيت الا ثملا ، واذا كان ثملا ، كان جافاً تبدو خشونة طباعه .

الى الابناء ولاسيما الابن الاكبر وليم تحول حب الام وصممت بعزيمتها الفولاذية على أن يكون أبناؤها مثقفين بارزين فى مضمار الحياة ، وكان وليم فتى طموحا يميل الى التعلم وقد تمكن من أن يجد عمل كاتب فى أحد المحال القريبة من قريتهم ثم انتقل الى عمل فى لندن وصارت زيارته للاسرة عيداً من الاعياد .

وأحب وليم فتاة من الكاتبات فى لندن وعزم على الزواج منها فقدمها الى عائلته وكانت فتاة كثيرة الاهواء محبة للمظاهر ورأت الام بعين الحنو انها لا تصلح لابنها ولكنها بعين الحنو أيضاً سكتت على مضض .

على أن الفتى كان يكتشف حبيبته شيئا فشيئا ، ويرفع الستر عن عينيه كما يدل على ذلك حديثه فى زيارته الاخيرة لأسرته ، وكان ذلك فى مساء يوم السبت

« وقد خاطب امه مرة واحدة فى ذلك المساء وكان يتكلم عن حبيبته فى لهجة الحزن والألم :

« ولكنك تعلمين ياأماه انى لو مت لتألمت شهرين ثم تأخذ فى النسيان ، وسترين انها لن تأتى الى هذا المكان لتنظر الى قبرى — لن تأتى مرة واحدة »

فقالت امه : ولكنك لاتموت ياوليم ، فلماذا تتكلم عن الموت ؟

على ان القدر رسم له ان يموت ، فقد عاد الى لندن فى منتصف ليل الاحد وفى يوم الثلاثاء تسلمت مسز موريل برقية بان ابنها مريض ، فاسرعت الى القطار ولاريب فى ان الام كانت تشعر ذلك الشعور الخفى بالكارثة ، ولا ريب فى انها كانت تقاوم ذلك الشعور وتغالبه فلا تستطيع ، ووصلت الى لندن لتراه يموت بين احضانها دون ان يتعرف الى امه

* * *

ان الصفحات التى وصف فيها د . ه . لورنس دخول الموت الى هذه الأسرة لهى من اروع ما كتبه

تحطمت آمال الأم فى وليم فتحولت الى ابنها بول ونشأ بول كما نشأ جميع افراد العائلة على حب الام وعلى ان يعتبر اباه خارجا عن الأسرة ، ونجد صورة من ذلك فى مرض حدث له وهو لايزال صبيا :

« اصيب الغلام بنزلة صدرية ولكن لم يهتم لها كثيرا ، فان ماحدث قد حدث ، وليس ثمة فائدة من مقاومة الاشواك ، وكان يحب المساء بعد الساعة الثامنة عندما تطفأ الانوار ويستطيع ان يرقب لهيب نيران الموقد يبدد ظلام الحائط والسقف ، ويرى ظلالا عظيمة تتموج وتضطرب ، وكأن الغرفة امتلأت برجال يتقاتلون فى سكون

كان الاب يدخل غرفة المريض قبل أن يأوى الى فراشه ومن عادته ان يكون فى نهاية الرقة اذا مرض احد فى البيت ، ولكنه كان يعكر جو الغرفة لدى الغلام

سأل موريل فى رفق : « هل أنت نائم يابنى ؟ »

فأجاب الغلام : « لا! هل امى آتية ؟ »

انها انتهت الآن من طى الملابس ، أتريد شيئا ؟ وكان موريل يخاطب اولاده بلهجة الاحترام

— لا أريد شيئا ولكن هل تغيب طويلا ؟

ـ لاتغيب طويلا يابنى

ووقف الاب برهة فى تردد فوق الطنفسة المبسوطة امام الموقد وقد شعر ان ابنه لايريده ، ثم ذهب الى اعلى السلم وقال لزوجته .

ـ ان الطفل يريدك ! هل يستغرق عملك وقتا طويلا ؟

ـ لن اتركه حتى انتهى منه ، قل له ينام

فقال الوالد لابنه فى لطف :« انها تقول لك نم »

فأجاب الغلام :« انى اريد ان تأتى »

فنادى موريل من السلم ، لن ينام حتى يراك

ـ كفى ! فلن آتى حتى انتهى من عملى ، ثم كفاك صياح من اعلى السلم ، فان الاطفال الاخرين . . . . . »

فقال الاب :« لن تغيب طويلا »

وظل الاب يجول فى الغرفة ، ويبدأ على الغلام ، القلق وكأن وجود ابيه زاد من نفاد صبره ، واخيرا وقف موريل امام ابنه لحظة ثم قال فى صوت رقيق : « ليلة سعيدة ايها العزيز »

فأجاب بول :« ليلة سعيدة » ودار بجسمه الى جانبه الآخر وقد شعر بالارتياح لانه صار وحيدا .

وكان بول يحب ان تنام امه معه ، وما زال النوم فى اكمل حالاته على الرغم من اقوال الاطباء عندما يشترك فيه المحبوب فان حرارة الروح وطمأنينتها وأمنها والراحة الكبرى فى تلامس الجسدين تربط النائم بالنوم بحيث يكون الجسد والروح فى عنايته وقد رقد بول الى جانبها ونام وتحسنت حالته ، اما هى والنوم لايزورها سريعاً فقد نامت بعد ذلك نوماً عميقاً اعاد الى نفسها قوة الايمان »

* * *

ولكن الامهات لايلبثن ان يجدن منافسات لهن فى ابنائهن ، ورواية الابناء والمحبين . إنها هى الاقصة ذلك النضال الخفى الذى يقوم بين الام وبين تلك التى تريد ان تحول قلب ابنها اليها .

فى مزرعة ويلى وجد بول حبه الاول : فتاة هى اخت لاصدقائه اولاد اصحاب المزرعة

كانت مريم ذات نزعة خيالية وكانت كبيرة التعلق بامها « وكان كل منهما ذات عينين عسليتى اللون ، وذات نزعة صوفية :« فكانت من اولئك النساء اللاتى يكتنزن الدين ويتنفسنه من انوفهن ، وكانت مريم تظن الله والمسيح شخصا واحدا تحبه حبا شديدا وتخشاه » . . . .

« وكانت هذه المخلوقة لاتهتم بجمالها الخجل المتوحش المتوقد حساسية ، بل لاتكفيها تلك الروح ذات النزعة الشعرية فكانت ، تبحث عن شىء آخر يقوى ماطبعت عليه من كبرياء ، لانها شعرت بانها تخالف غيرها من الناس ، ولكنها نظرت لبول نظرة اخرى فهى بوجه عام تكره الرجال ، على انها رأته من نوع آخر سريعا خفيفا رقيقا قد يكون احيانا آية فى اللطف ويتغلب عليه الحزن احيانا ، وهو ذكى يعرف الشىء الكثير وقد طاف الموت مرة بعائلته ، ورفعه فى عينيها الى السماء ماحصل عليه من المعلومات الضئيلة .. »

احبته الفتاة واخذ الفتى ينفتح قلبه للحب ، ولكنه كان حبا غريبا خفيا ممزوجا بكل مافيها من مشاعر الدين والتقوى ، واما حب الفتى فكان فطريا ممزوجا بتلك العاطفة التى يمتزج بها الحب كثيراً فى نفس فتى تحول قريبا من دور الصبى الى دور الرجل ، وقد رأت فيه الفتاة مثلا أعلى للرجل المتصف باكمل الصفات ، أما الشاب ذو الشفة المرتعشة بحرارة الشهوة فكان ينظر الى الحب من ناحية أخرى

لم يلبث الفتى ان مل هذا الحب ، واراد حبا أكثر أنسانية واقل تطلعا الى الملائكة ، ووجده عند كلارا التى كان يعمل معها فى محل واحد

تعلق الفتى بها وتعلقت به ، وتجاذب النفسان تلك العاطفة تجاذبا ، نقرأه بدقائقه فى هذه الرواية ، ولكن شيئا كان يحول بين توافق هذين القلبين كما كان يحول بين توافق قلب بول ومريم

الواقع ان هنالك حبا آخر عنيفا محطما كان يعمل دائما على التفريق ، وهذا الحب المحطم هو حب الام لولدها ، فبول كان شديد التعلق بامه وامه شديدة التعلق به والحنو عليه ، فلما ان طمحت نفسه الى حب آخر لم يجد الى التخلص سبيلا ، انه لم يشعر بذلك لان هذا الحب كان يجتذبه بخيوط خفية دقيقة لايراها ولايستطيع الا ان يظل فريسة ، فعندما تحول حب بول عن مريم كانت الام تجتذبه ، وعندما تحول حبه عن كلارا كانت الام تجتذبه

ولم تكن الام تعمل على ابعاده ولا هى تسعى لذلك سعيا ظاهرا ، بل هى تود سعادته وخيره ، وتود ان يصل الى كل مايرضيه ، وانما نفوذها القوى عليه وحمايتها الشديدة له وعنايتها به منذ صغره الى ان مرضت مرضها الاخير والى ان لفظت آخر انفاسها امامه ـ هذا النفوذ هو الذى حطمه فى صباه وقد يحطمه فى رجولته

فموضوع الرواية الحقيقى قد لايكون حياة بول وانتقاله الى الرجولة وتفتح عينيه الى سر الحياة ، وانما هو : نفوذ الام وعطفها الذى قد يكون اشد خطرا على حياة الشاب من جميع الاخطار

وتعتبر هذه الرواية من اوائل روايات (د.هـ. لورنس) ويضعها البعض فى مقدمة رواياته لكن اسلوبها المصقول الحذر ينم على يد لم تكن من المران بحيث تطلق عنانها وان كنا نرى فى التحليل النفسانى نبوغا لايقل عن نبوغه فى خير رواياته ؟

حسن محمود